

نظرة قرآنية لمفهوم البيئة



أفادنا القرآن الكريم في الكثير من آياته عن النظرة القرآنية لمفهوم البيئة حيث إستوعبت آياته الكريمة جميع مجالات علم البيئة التي هي مورد أبحاث العلماء المهتمين بشؤون البيئة. فقد أعطتنا إحدى آيات القرآن المفهوم الشامل والكامل للبيئة. فإذا تأملنا الآية السادسة من سورة طه حيث يقول سبحانه وتعالى: (لَهُ مَآ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَآ فِي الْأَرْضِ وَمَآ بِيَدِنَاهُمَا وَمَآ تَحْتَ الثَّرَى) (طه/ 6). فإننا نجد أن هذه الآية الكريمة أفادت من ضمن ما تعني: شمولية المعنى والحصر لمكونات أي بيئة، حيث السماوات وما فيها من أشياء وموجودات لا يحيط بعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ثم الأرض وما فيها من عناصر يمكن إيجازها فيما يلي: العنصر الأول طبيعة سطح الأرض وتشمل الجبال والأودية والأنهار والغابات والبحيرات والتلال والصحاري ومجاري السيول، وغير ذلك من عناصر الطبيعة التي تكوّن مع العامل المناخي البيئة الطبيعية. العنصر الثاني: الإنسان والحيوان والنبات وكل الكائنات الحية الأخرى. العنصر الثالث: البيئة العمرانية وهي من صنع الإنسان، وتشمل مواقع العمران بما فيها من مباني وطرق وغير ذلك من المكونات العمرانية أما "وبينهما". أي ما بين السماوات والأرض فنستدل منها على المؤثرات الطبيعية والجغرافية والمناخية التي تشمل الشمس والهواء والرياح والرطوبة النسبية والسحاب ودرجة الحرارة والأمطار... وغير ذلك من عناصر المناخ. ونستدل من (وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) على المكونات الموجودة في باطن الأرض سواء كانت مكونات جيولوجية أو خامات معدنية وثروات

طبيعية يمكن إستخراجها واستثمارها إقتصادياً ، أو مياهاً جوفية يمكن إستخراجها لأغراض الزراعة والإستيطان. لقد حصرت الآية السابقة مكونات وعناصر البيئة بدقة وشمولية كاملة، ثم جاءت العديد من الآيات القرآنية لتوضح وتشير بالتفصيل إلى مصادر الثروة الطبيعية، وتنوع المواد الطبيعية المتوافرة في بيئة الأرض والغلاف الجوي. فعن الثروة والموارد المائية يقول ﷻ سبحانه وتعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) (الأنبياء/ 30). وتتمثل هذه الثروة المائية في المسطحات المائية كالمحيطات والبحار، والمسطحات المائية العذبة كالأنهار والبحيرات العذبة، ويمكن إلحاق مياه الأمطار والمياه الجوفية بهما كمصدر من مصادر المياه العذبة، والآيات التالية تبيّن بعض الخيرات والمنافع التي يمكن الحصول عليها من الموارد المائية. يقول سبحانه وتعالى: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْهُ فَضْلًا وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (النحل/ 14-15). كما يقول سبحانه وتعالى: (وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةَ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا حَبًّا وَنَعِيمًا وَمِنْهَا نَعِيمٌ لِمَنْ يُشْكُرُ * وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا نَخِيلًا وَأَعْنَابًا وَفَجَّارًا فِيهَا مِنْ الْعُقُومِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) (يس/ 33-35). أما عن الثروات والموارد النباتية فقد جاء ذكرها في بعض الآيات الكريمة توضيحاً لبعض النعم التي تعود على الإنسان من استخدامها، حيث يقول ﷻ سبحانه وتعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شُرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل/ 10-11). كما يقول سبحانه وتعالى: (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (النحل/ 67). كما أوضحت بعض الآيات الكريمة المنافع التي تعود على الإنسان من الثروات والموارد الحيوانية، حيث يقول سبحانه وتعالى: (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعًا فَعٍ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالرَّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (النحل/ 8-5). كما يوضح لنا

□ سبحانه وتعالى أحد المنافع التي تعود على البشر من إستخدام جلود الحيوانات في إنشاء بيوت النقلة والترحال في قوله تعالى: (وَاللَّاهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَثًا وَمَتَاءً إِلَىٰ حِينٍ) (النحل/ 80). أما عن الثروات والموارد الأرضية فقد حوت الأرض وقشرتها وما تحت الثرى من الثروات والمعادن التي لا تعد ولا تحصى، ولقد نبه القرآن الكريم على أهمية الثروات المعدنية وفوائدها للبشر بل إن □ سبحانه وتعالى قد سمى إحدى سور القرآن باسم معدن "الحديد"، وعنه يقول سبحانه وتعالى: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْذَابُ عِلْمٍ لِلنَّاسِ) (الحديد/ 25)، ومن هذه المنافع ما ورد ذكره في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنْهَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَرَاجَتَ الْجِبَالَ لَأَوْ وَّابِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * إِنَّ آعْمَلُونَ سَابِغَاتٍ وَقَدِرُ فِي السَّرِّدِ وَآعْمَلُوا صَالِحًا إِن نَبِيًّا بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (سبأ/ 10-11). كما جاء ذكر معدن النحاس في قوله تعالى: (وَأَسْلَمْنَا لَهُ الْيَنْبِاقُطْرَ) (سبأ/ 12)، وعين القطر هو النحاس المذاب، وقد سخر □ هذا المعدن المهم للنبي سليمان (ع) وجعله من أسباب الحضارة العظيمة التي كانت على عهده. كما تحدت العديد من الآيات القرآنية عن الثروات والموارد الجوية، فقد سخر □ سبحانه وتعالى الشمس، المصدر الأساسي للطاقة، وغيرها من النجوم لمنفعة البشر ويتضح ذلك من قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (النحل/ 12). ومن الموارد الجوية المهمة أيضاً الرياح التي كانت من دعائم ملك سيدنا سليمان، وفي ذلك يقول □ سبحانه وتعالى: (وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوءًا شَهْرًا وَرَوَّاحُهَا شَهْرًا...) (سبأ/ 12)، وقوله: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) (ص/ 36). لقد فهم المسلمون من هذه الآيات السابقة وغيرها أن □ سبحانه وتعالى عندما أودع هذه الثروات والموارد في بيئة الأرض كان ذلك من أجل غاية عظيمة ألا وهي عمارة الأرض والكون، والتي تدخل تحت الغاية الأساسية من خلق الإنسان وهي عبادة □ الواحد الأحد، ويمكن أن نلمح الأمر الإلهي بوجود عمارة الأرض في قوله تعالى: (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ. إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) (هود/ 61).

وقيل في تفسير هذه الآية: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن وغرس وأشجار. وقد

فِي سِتَّةِ أَيْامٍ) (ق/ 38). وهي آيات تشير إلى ثلاث مجموعات من المخلوقات، تلك التي توجد في السماء، وتلك التي توجد في الأرض، وتلك التي توجد بين السماوات والأرض، مما أثار دهشة قارئ القرآن في القرن العشرين. ولقد تناول القرآن الكريم تفصيلات سابقة للعصر الذي نزل فيه، وتكلم على كل من عالم السماء وعالم الأرض، وعالم ما بين السماء والأرض، معطياً كل شيء قدره وحقيقته في الكون، بما يكشف عنه العالم الحديث، من مثال الدخان الذي ذكره القرآن الكريم، للدلالة على الحالة الغازية الغالبة على المادة، التي كونت الكون في المرحلة الأولى. وتكلم القرآن الكريم عن طبيعة الأجرام السماوية، من الشمس والقمر والنجوم والكواكب، وعن تعاقب الليل والنهار، وعن توسع الكون، وعن البحار وتضاريس الأرض، وعن أصل الحياة، وعن عالمي النبات والحيوان. وأشار القرآن الكريم إلى أن ما خلقه الله سبحانه وتعالى قد خلقه بمقادير محدودة، وصفات معينة، مما يكفل توفير سبل الحياة الملائمة للإنسان وغيره من الكائنات الحية الأخرى، التي تشاركه في الحياة على الأرض. ومن دلائل القرآن الكريم على العناية والإهتمام بالبيئة: أولاً: أن تجد عدداً من سوره يسمى بأسماء للحيوانات والحشرات وبعض النباتات والمعادن، وبعض الظواهر الطبيعية. فنجد من أسماء السور: سورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة الفيل وسورة العاديات وهي الخيل، وكلها من الحيوانات. ونجد سورة النحل، وسورة النمل، وسورة العنكبوت، وكلها من الحشرات وهذا ما جعل المشركين أو اليهود يعجبون من ذلك ويقولون: أي قدر للذباب وللعنكبوت، حتى يضرب الله بهما الأمثال؟! ورد القرآن عليهم بقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) (البقرة/ 26). وأراد بما فوقها: أي في الضعف والهوان. ولهذا فسره بعضهم بقوله: أي ما دونها. ثانياً: أننا نجد في القرآن سورة التين، وهو من النباتات، وسورة الحديد، وهو من المعادن. ثالثاً: نجد سورة الرعد، وهو من الظواهر الطبيعية، وسورة الذاريات، وهي الرياح التي تدور الأشياء. وسورة النجم، وقد أقسم الله به إذا هوى، وسورة الفجر، وسورة الشمس، وسورة الليل، وسورة الضحى، وسورة العصر، وكلها خواطر طبيعية. رابعاً: نجد سورة الطور، وهو يعني الجبل مطلقاً أو جبلاً معيناً وسورة البلد، والمراد به مكة البلد الحرام، وسورة الأحقاف، وهي في الجزيرة العربية، وسورة الحجر، وسورة الكهف، وكلها أماكن فهذه التسميات للسور القرآنية لها دلالاتها وإجاؤها في نفس الإنسان المسلم، وربطه بالبيئة من حوله، بحيث لا يكون في عزلة أو غفلة عنها. المصدر: كتاب الإسلام والبيئة